

دور الأردنيين في الدفاع عن فلسطين

إعداد

د. حسين محافظة

بداية أتوجه بالتحية والشكر والتقدير لكل القائمين على هذا النشاط الحافل والمميز الذي تنهض به جمعية المكتبات والمعلومات الأردنية. واسمحوا لي أن أتقدم بخالص الشكر للأخ الدكتور عمر جرادات، على دعوته وحرصه على مشاركتي في هذه الندوة الكريمة.

وبعد:

فلا شك أن أسلوب عقد الندوات له فوائد كثيرة لما ينتج من لقاءات وتبادل لوجهات نظر الباحثين والمهتمين، وتحفيزهم على المساهمة في الدراسات والحوارات المعبرة عن رؤاهم ومواقفهم حول القضايا المطروحة، إضافة لما يتحقق من تعميق الفهم والحوار المسؤول، خدمة لقضايا الوطن والأمة، بصدق وشجاعة وأمانة.

أيها الأخوة:

بما أن الندوة التي نحن يصدها تخص القدس والموضوع الذي سوف أتحدث فيه يحمل عنوان "الأردنيون والقدس" -أسمح لنفسني بتقديم مدخل يتضمن قسمين: الأول- وجداني (عاطفي) والثاني- منهجي.

أولاً: المدخل الوجداني:

الحديث عن القدس والأردنيين حديث مبتدأه الحب والصدق والطهارة، ومنتهاه الشجاعة والبطولة والشهادة... نحن والقدس ثنائية تاريخية عمدها دماء الشهادة، وجلتها قيم الثقافة الوطنية والقومية الأردنية، وزانتها روعة وفن القيادة المتوجة بدماء شهيد العرب ومنقذ القدس الأمير عبد الله بن الحسين طيب الله ثراه.

أقول وأنا واثق ومطمئن كل الاطمئنان أن القدس ليست وهماً أو خيالاً ولا هي مجرد أطلال ووجدان... القدس هدف ورمز وعنوان... وكل حديث أو قول من أي كان قاصر ومشوه ومدان طالما لم يبلغ مستوى نبيل الشهادة وفلسفة المكان.

القدس ليست كهفاً يأوي إليه الضلال.... أو جداراً يبيع على أطرافه صاحب دكان... ولا هي هيكل للإنسان، القدس آية من آيات الخلق والإبداع والإيمان... القدس نور بين الأرض والسماء... هكذا وصفها سيد الخلق وأشرف بني الإنسان وجعلها حداً بين الحق والطغيان، فكانت وما تزال التحدي والرهان.

ثانياً: المدخل المنهجي.

حظيت القدس بمكانة سامية عند كل الشعوب والأمم وفي كل العصور، وما تزال كذلك. ونالت من الاهتمام والانشغال ما لم تتله أية مدينة، أو قضية في العالم وما كتب عنها من الكثرة يستعصي على الحصر أو الإحصاء البليوغرافي. من هنا ينشأ سؤال هام: هل الكم الهائل من الكتابة والمؤلفات والدراسات والآداب والأشعار والخطب والتصريحات حول القدس دليل صحة وعافية؟ أم دليل على شدة المحنة وتعبير عن العجز وتبرير للفشل في مواجهة تحدي القدس؟!

إن الإجابة المنطلقة من التفكير العلمي والرؤية الموضوعية تدعو إلى وجوب الحذر تجاه كثرة الكتابة والقول مثلما هي واجبة تجاه قلتها. وعليه أقول إن ما تحتاجه القدس هو قول واحد: الحقيقة فقط مهما كانت حداثتها وقسوتها؛ لأن الحقيقة تأصيل للمعرفة وتجديد لها مثلما هي رد منهجي لكيفيات البحث ووسائله وأساليبه، فالحقيقة

تؤكد الموضوعية وترفض الآراء المسبقة أو السائدة، كما ترفض وتواجه كل محاولة للتضليل والتعميم الهادف إلى نشر أفكار وآراء مفادها القبول بواقع الضعف والخنوع والاستكانة والاستسلام لجبروت القوة وطغيان العدوان الذي دمر ويدمر القدس ويهدد ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

في المنهج والرؤيا يمكن استخلاص مسألتين الأولى: الحذر من أية محاولة لحشر القدس في جدران الكتب والموسوعات والمجلات كونه يماثل حشرها في جدران الحصار والبطش والتزوير والتهجير.. وهذا تحدٍ يجب مواجهته بمواقف ورؤى عقلانية وعلمية والثانية: تأكيد ضرورة دراسة القدس وفق مناهج البحث العلمية، وبروح نقدية جريئة للوقوف على مواطن الضعف والخلل، ومعرفة الإيجابي والسلبي والمناسب من غير المناسب، كي يتمكن الفكر من اختراق المستعصي على التفكير وبما يكفل فتح منافذ جديدة تغير شروط المعرفة وتضاعف إمكانات الفهم والرؤية وتؤسس لصحة اتخاذ القرار والمواقف.

أيها الأخوة:

الآن سوف أتحدث باختصار شديد حول محورين للنقاش: الأول: خلاصة في الصيرورة التاريخية للقدس والثاني: خلاصة في دور الأردنيين بالدفاع عن القدس.

أولاً: خلاصة في الصيرورة التاريخية للقدس

القدس من أقدم المدن التي نشأت في بلاد الشام وظلت عامة باستمرار حيث توفرت في منطقتها شروط طبيعية مناسبة للاستقرار والعمران مثل المناخ المعتدل والمياه والموقع، والأهم من ذلك ما وفرتة القوى البشرية التي أسست القدس وعمرتها من طموح لمواكبة النشاط الحضاري.

اكتسبت القدس اسمها وهويتها من شعوب المنطقة (اليبوسيين والكنعانيين والآراميين والعرب) وغيرهم واستقر اسمها القدس أو بيت المقدس للدلالة على معنى الطهارة ونيل مقاصد الثقافة التي بشر بها الأنبياء والرسل. وتجذرت هذه الدلالات في التاريخ الإنساني⁽ⁱ⁾.

وبعد نزول الوحي والرسالة على خاتم الأنبياء والرسل النبي العربي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) تأصلت معرفة العرب بالقدس ومنحتها المشيئة الإلهية رمزية دينية خاصة، فكانت الواسطة بين الأرض والسماء التي عبرت عنها حادثة الإسراء والمعراج. وأكدت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة أهميتها ومكانتها وفضلها فهي أولى قبلة المسلمين وثالث الحرمين الشريفين⁽ⁱⁱ⁾. وصارت في نظر المؤمنين وعداً منتظراً لممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعمل الصالحات وإقامة العبادات والاستخلاف في الأرض لكل المؤمنين برسالة التوحيد ومبادئها الإنسانية.

وعند قيام الخلافة وبدء الفتوح كانت القدس على موعد مع قيم القداسة التي حملها الفاتحون وكان لأصرار أهلها على شهادة الخليفة عمر بن الخطاب. على فتحها (١٥هـ/٦٣٦م) دلالة هامة وهي أن القدس يجب أن تبقى مدينة السلام والحرية والعدل، كما كان لشرطهم عدم إيواء من أساء لقداستها مثل (اليهود واللصوص) بعداً له دلالة إضافية على هويتها المستقبلية⁽ⁱⁱⁱ⁾.

منذ الفتح استعادت القدس هويتها ونمت وازدهرت وصارت مساجدها وكنائسها منارات للعلم والثقافة وصهرت في بوتقتها تعايشاً فريداً للديانات، وأسهم سكانها في بناء الحضارة العربية الإسلامية.

بقيت القدس هادئة ومطمئنة حتى فاجأتها الهجمة العدوانية المعروفة بالحروب الصليبية (٤٩٢-٦٤٢هـ/١٠٩٩-١٢٤٤م). فكانت حرباً وعدواناً على الصليب والمسيحية التي ادعى الغزاة زوراً نصرتها. غير أن الزمن لم يطل كثيراً وجاء

التحرير على يد صلاح الدين (٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين أول ١١٨٧م). وكما كان الفتح العمري كان الفتح الصلاحي مثلاً للتسامح والاعتدال الجدير بالقدس ومبادئ وقيم الرسالة الإنسانية^(١٧).

ومنذ ذلك الحين عادت القدس إلى ذاتها، ومارست دورها في مختلف الفعاليات الفكرية والثقافية والعمرانية والاقتصادية والفنية. وبقيت كذلك حتى بدايات القرن العشرين (١٩١٧م) عندما دخلتها جيوش الاحتلال الأوروبي (البريطاني)، وفرضت عليها صورة قائمة من المخططات الشريرة، وأدخلتها في محنة جديدة.

من هذا العرض السريع لتاريخ القدس تستنتج أموراً عديدة منها: أولاً: أن القدس منذ نشأتها كانت مدينة للتوافق والسلام بين سكان المنطقة ولم تتخذ قاعدة عسكرية، أو مركزاً لحشد الجيوش.

ثانياً: كانت القدس مدينة للعلم والعلماء والثقافة المتسامحة. ولم تعرف في تاريخها الطويل القلق والاضطراب المجتمعي، على عكس كثير من مدن المنطقة والمدن العالمية.

ثالثاً: مثلت القدس تراثاً حضارياً مميزاً بأشكاله وأنماطه الفكرية والأدبية والعمرانية والفنية المعبرة عن القيم الإنسانية.

المحور الثاني: الأردنيون والقدس

بداية أرى أن من حق وطننا علينا أن نضيء مواقف أبنائه، ودورهم وتضحياتهم في الدفاع عن قضايا أمتهم لا سيما قضية القدس وفلسطين. وآمل من خلال هذه الخلاصة السريعة أن ألفت الانتباه إلى حقيقة مواقفهم ودورهم بالقدر الذي تسمح لي الفرصة وأعد أن أجعل من هذه المحاولة بحثاً أكاديمياً متكاملأ عندما يتوفر الوقت الكافي.

كان وعي الأردنيين بهويتهم الوطنية والقومية لا يقل بتطوره عن مستوى وعي وإدراك أبناء أمتهم في بلاد الشام والمنطقة. ولعلي لا أبالغ إن قلت إنهم كانوا أكثر تشبهاً بالمبادئ الوطنية المنصهرة بالمفاهيم القومية الداعية إلى التحرر والاستقلال والوحدة العربية التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين^(٧). وتجلت مظاهر هذا الوعي والتفاعل من خلال انتساب عدد كبير من زعمائهم ومتفقيهم للجمعيات الأدبية والسياسية والعسكرية مثل: الجمعية العربية الفتاة، وجمعية العهد وغيرها^(٨). وكانت ذروة الوعي لديهم في مشاركاتهم بالحركات والثورات ضد السلطة الاستبدادية العثمانية مثل ثورة حوران وثورة الكرك (١٩١٠) وفيما بعد في الثورة العربية الكبرى (١٩١٦)^(٩). وساهم الأردنيون ضباطاً وزعماء قبائل بالحركات العسكرية لجيش الثورة الشمالي الذي قاده الأمير فيصل بن الحسين^(١٠).

كما شاركوا بفعالية بالنشاطات السياسية للحكومة العربية الفيصلية وصار الأردن المركز الرئيسي بعد دمشق لفعاليات هذه الحكومة ومنهجها في إدارة الدولة الجديدة. غير أن التطورات السياسية والعسكرية أعاققت هذه المحاولة، وقضت عليها بعد اصطدامها بالمخططات الاستعمارية ودخول الجيوش الفرنسية إلى لبنان، ووقوع معركة ميسلون (١٩٢٠م) واحتلال دمشق^(١١).

بعد ميسلون صارت الأردن ملاذاً للثوار السوريين الذين أخذوا يقاومون الاستعمار ويواجهون قواته العسكرية، وتحولت قرى الشمال الأردني مثل إربد والرمثا مراكز انطلاق الثوار وهجماتهم على القوات الفرنسية. كما تحولت البادية الأردنية (الأزرق والمفرق) وعمان إلى مراكز إيواء وحشد وتأييد للثوار السوريين الذين لاذوا بها طوال الفترة الممتدة من (١٩٢٠-١٩٢٧م)^(١٢).

إن الفترة الفاصلة بين ميسلون وقيام الإمارة (١٩٢١) بعد وصول الأمير عبد الله بن الحسين إلى الأردن تعد من أهم الفترات والحقب -على قصرها- في التاريخ

الوطني والقومي الأردني. فقد أسرع الأردنيون لتشكيل دول محلية وحددوا أهدافها وطموحاتها الاستقلالية والديمقراطية والوحدوية، كما أدركوا مخاطر المشاريع الاستعمارية في تفتيت المنطقة وإقامة وطن لليهود في فلسطين.

إن مقررات مؤتمر أم قيس (١٩٢٠). شكلت مقدمة هامة لترسيخ مفهوم الدولة بكل أبعادها ووضعت مقدرات الشعب الأردني في خدمة قضايا أمتهم وتحدي السيطرة الاستعمارية. والأمر المميز في هذا الوعي انتقال الأردنيين إلى ترجمة عداؤهم للاستعمار والصهيونية بالممارسة العملية من خلال الهجوم المسلح على المستعمرات اليهودية في الأغوار الأردنية قرب سمخ غربي النهر. وفي المعركة سقطت الكوكبة الأولى من الشهداء الأردنيين على أرض فلسطين^(xi).

ويمكن القول إن هذه المحاولة الأردنية شكلت نقطة تحول فاصلة في توجهات الأردنيين القومية، وبداية مميزة لدورهم على أرض فلسطين حيث صاروا بعدها أكثر تحدياً وإقداماً على ممارسة الأعمال ذات الطابع القتالي في مواجهة القوات الصهيونية بعد تطور الأحداث في فلسطين، ولعل هذا الشكل من النضال يعود إلى بنية المجتمع الأردني وثقافته الوطنية والقومية المتجذرة في تكوينهم، فهم مجموعة بشرية ذات أصول عربية عريقة عريقة حافظت على أنسابها وثقافتها التاريخية التي تمجد الانتساب للعروبة، وتعلي قيم ومبادئ الدين الإسلامي^(xii).

إن تغلب الشكل النضالي القتالي للأردنيين، وكثافة تطوعهم للانخراط في الأعمال القتالية على أرض فلسطين مؤشر قوي على وعيهم الوطني والقومي وعلى تبنيهم لقضايا أمتهم، وبالتالي الاستعداد لتحمل نتائج وتبعات الصراع الدائر في المنطقة.

بعد قيام الإمارة صارت الدولة تقود المشروع الوطني والقومي، وتحاول رسم ملامحه وتعين أبعاده. واعتمد الأمير بما امتلك من قدرات ذهنية وفكرية، وبما امتلك من خبرات في قيادة الجيوش العسكرية وإدارة العلاقات الدولية وبرؤيته للدولة والنهضة على أسس واضحة للشروط الحديثة في بناء الدولة العصرية، بما يعني ذلك من نظم قانونية ومؤسسات سياسية^(xiii). غير أن هذه التوجهات لم تكن تسير في الواقع كما حلم بها بسبب قوة هيمنة الدول المنتدبة ومحاولتها تطويق الطموحات الوطنية، وتوجيهها لخدمة مصالحها.

بذل الأردن أميراً وشعباً أقصى ما أمكنه من الجهود في مقاومة السياسات الاستعمارية البريطانية والفرنسية، واتبع الأسلوب السلمي القائم على الاحتجاج والاعتراض على هذه السياسات وممالأة الدول الكبرى للحركة الصهيونية. وتبنيها لمشروع إقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين^(xiv).

وأما الشعب الأردني فلم يترك وسيلة أو أسلوباً إلا واتبعه في مواجهة قوات الانتداب والحركة الصهيونية، وتشكلت المعارضة الوطنية منذ إعلان المعاهدة (الأردنية- البريطانية ١٩٢٨م) ونصت مقررات مؤتمراتهم الوطنية من المؤتمر الأول (٢٥ تموز ١٩٢٨) إلى المؤتمر الخامس (١٥ حزيران ١٩٣٣) على رفض وعد بلفور وضرورة مساعدة الشعب الفلسطيني ودعمه بكل الوسائل^(xv).

ومع تطور الأحداث في فلسطين ووقوع الصدامات المسلحة مع الجيش البريطاني والعصابات الصهيونية تطورت المواقف الأردنية بالفعاليات السياسية والمشاركة الميدانية في القتال إلى جانب المجاهدين الفلسطينيين. وفي المؤتمر الإسلامي الأول (١٩٣٠م) شارك الزعماء السياسيين الأردنيين بالمؤتمر وصياغة مقرراته^(xvi). وكانت المشاركة الأردنية الأبرز في هذه المرحلة بالأعمال الجهادية التي ترافقت مع إضراب عام ١٩٣٦ وما تبعه من نشاطات حتى نهاية عام ١٩٣٨م.

تحول الأردن إلى جسر أمد الثورة الفلسطينية باحتياجاتها من الأسلحة، كما شكل الأردنيون القسم الأكبر من قوات المجاهدين العرب بقيادة "قوزي القاوقجي" وسقط العدد الأكبر من الشهداء الأردنيين في المواجهات التي خاضها المجاهدون (xvii). وكان لاستشهادهم صداه في المجتمع الأردني، فالتهمت حماسهم والتحق المئات منهم من كل المناطق (اربد، السلط، الكرك، البادية) بصفوف الثورة (xviii).

وبعد توقف الإضراب استقبل الأردنيون الثوار العائدين من فلسطين، وكان في مقدمتهم زعماء قبائل الأغوار وزعماء القبائل في منطقة اربد أمثال: سليمان السوري الروسان وعادل العظمة، وناجي العزام وبشير الغزاوي. وبعد مسير الثوار إلى بلدة "قم" الوسطية وصل زعماء القبائل: حديثة الخريشا ومقال الفايز، ثم وصل الأمير طلال بن عبد الله لاستقبال الثوار والتعرف إلى جهادهم، ومن ثم توفير الحماية والمساعدة لهم طوال إقامتهم في الأردن، وأثناء عودتهم إلى سوريا والعراق (xix).

وتعرض الزعماء السياسيين إلى ردود فعل سلبية من قوات الانتداب البريطانية في الأردن، وضيق على نشاطاتهم بهدف الحد من دعمهم للثوار الفلسطينيين فدخلوا في مواجهة مع قوات الانتداب في الأردن وحاولوا إشعال ثورة في جباله ووديانه، كما قاموا بمهاجمة مراكز الشرطة البريطانية، وحاولوا اغتيال ضباطهم (xx).

ومن دراسة هذه الفعاليات يتبين مقدار الحماسة والجهد الأردني الذي بذل دفاعاً عن عروبة فلسطين ومقدساتها. ويمكن القول إن الأردن كان البيئة الحاضنة للثورة وفلسفتها، كما أن الأردن لم يشهد التفاعلات السلبية التي نجمت عن أحداث الإضراب والثورة، ولذلك بقي الشعب الأردني متحفزاً لتكرار التجربة وتطويرها.

وكان لدى الأمير استخلاصات عميقة للتجربة الوطنية الأردنية والعربية، وأخذ بالتعبير عن هذه الاستخلاصات من خلال الاستمرار بالنضال السياسي، والدفاع

عن القضية في المحافل الدولية، ثم انتقل إلى طرح مشاريع سياسية متكاملة لاستيعاب المشكلة وتقديم حلول عملية لها. ولعل أبرز هذه المشاريع هو مشروع سوريا الكبرى.

قدم الأمير مشروعة المعروف بمشروع وحدة سوريا الكبرى عام ١٩٤٣ انطلاقاً من إيمانه بمبادئ الثورة بالتححرر والوحدة، واعتقاده الراسخ أنه يمارس واجباً قومياً وأخلاقياً تجاه أمته ومستقبلها، إذ اعتقد أن مستقبل الأمة مهدد بخطر الاستعمار والصهيونية طالما هي مجزأة وغير قادرة على توحيد نضالاتها بحيث تتمكن من التغلب على القوى المعادية^(xxi).

نص المشروع على وحدة سوريا الطبيعية (الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين) في دولة واحدة ذات مؤسسات ونظم ديمقراطية تحقق طموحات الشعب وترقى بدولته إلى مستوى الدول الحديثة.

وكان المشروع في جوهره يمثل خلاصة الأهداف القومية التي دعت إليها الحركة القومية العربية منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فالمشروع كما رآه الأمير وغيره من قادة المنطقة الذين تحمسوا له أو عملوا من أجله يوفر القدرة للعرب على تحقيق فكرة التوازن الاستراتيجي مع القوى المعادية، وربما يتفوقون عليها، وبالتالي تتهيأ الفرصة لحشد القوى والدخول بمجابهة ناجحة مع أعداء المنطقة لا سيما مشروع الحركة الصهيونية. وهذا هو الجانب الهام في المشروع، فهو حين أعطى استقلالاً ذاتياً للتجمعات اليهودية التي عاشت في فلسطين يقضي على فكرة الوطن القومي ويفرغ وعد بلفور من مضمونه. كما أنه يوفر الحماية القانونية للشعب الفلسطيني الذي حرم من حق الاستقلال بفعل صك الانتداب وما تبعه من تأسيس للوعد القائم على شراء الأراضي وحشد المهاجرين من كل مراكز العالم. كما أن الفراغ السياسي الذي تعيشه فلسطين بفعل السياسات الاستعمارية وتمزيق الحركة الوطنية الفلسطينية، وإضعافها بكل الوسائل، قد يكون مقدمة حقيقية لكارثة منتظرة في هذه

البلاد، كما يشكل خطراً أشد على البلاد المجاورة لا سيما الأردن الملاصقة لفلسطين جغرافياً.

وعلى الرغم من هذه الأبعاد التي تضمنها المشروع إلا أنه قوبل بالرفض والتشويه من كل الأطراف السياسية في المنطقة التي انخرطت في مشاريع وهمية ذات نزعات إقليمية الأمر الذي أدى إلى إهمال المشروع عملياً غير أن الأمير لم يفقد الأمر بإيجاد صيغة ووحدية لمجابهة الخطر القادم، وركز على الاهتمام بالجيش ليبقى مستعداً للنزال مع القوى الصهيونية^(xxii).

وهنا أشير إلى أن شخصية الأمير كانت ذات سمات مميزة، فهو مفكر سياسي بارع، وله خبرة عسكرية عالية في قيادة الجيوش وإدارة القتال. واستعمال هذه القدرات والخبرات في اتباع سياسات مرنة توفق بين طموحاته القومية وعدم الدخول في مجابهة مباشرة مع القوى الكبرى وبرزت كل هذه الطاقات في معركة إنقاذ القدس عام ١٩٤٨-٤٧^(xxiii).

إن تمتع الأمير بالرؤية السياسية العميقة أهله لاكتشاف اتجاهات تطور المنطقة إن الاستعمار سوف يزول، ولا بد للمنطقة من قوى مؤهلة لملء الفراغ، وإلا فالقوى الخفية مثل الحركة الصهيونية ستقتنص الفرصة، وتنقض عليها، وتحقق أهدافها.

دعا الأمر إلى وحدة دول المنطقة وتحضيرها لهذه المواجهة المرتقبة ولم يكتشف قادة الحركة الوطنية الفلسطينية وزعماء الدول مصر والعراق وسوريا والسعودية حقيقة التحولات الجارية التي بدأت المنطقة تشهدها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م).

ومع تخلي بريطانيا عن مسؤولياتها الانتدابية في فلسطين وإعلانها فشل مشاريعها السياسية للتوفيق بين فكرة الوطن القومي لليهود التي رعتها طوال المدة السابقة، أخذت القضية الفلسطينية صفة القضية الدولية وطرحت على هيئة الأمم المتحدة. إلا أن هذه الأخيرة لم تقدم أكثر مما قدمته بريطانيا، وطرحت مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية^(xxiv).

رفض المشروع من كل الأطراف العربية وهنا تجددت دعوة الأمير للعرب إلى اتباع سياسة عقلانية وواقعية مؤداها يقوم على قبول الفكرة إذا لم يوفرنا بديلاً عملياً لها، غير أن الأطراف العربية أصرت على الرفض وهنا طالبهم بطرح البديل والمستند على فكرة المواجهة مع القوى الصهيونية المستعدة عسكرياً وسياسياً لتنفيذ مشروعها^(xxv).

وجاءت الإجابات متأخرة بما يمكن تسميته "استعداد في اللحظة الأخيرة" وتبنت الجامعة العربية استراتيجية الحد الأدنى بقرار ملتبس ينص على المحافظة على عروبة فلسطين^(xxvi). وأما الكيفيات والوسائل التي تكفل ذلك، فقد طرحت فكرة العمل العسكري الموحد عند انتهاء الانتداب في ١٤ آيار ١٩٤٨ بصورة لا تقل غموضاً والتباساً عن القرار السياسي.

معركة الإنقاذ والقتال الملحمي

كان الأمير يحرص كل الحرص على بناء مؤسسات الدولة الأردنية بالقدر الذي تتيحه الظروف، وكان الجيش العربي (الأردني) محط اهتمامه ورعايته، فقد أولاه جل عنايته وسهل عملية تطويره تدريباً وتسليحاً من خلال الاستفادة من خبرة الضباط البريطانيين، وزج الجيش بالمهام العسكرية التي تكسبه الاحتراف العسكري والمهارات القتالية. وهنا أشير إلى إصرار الأمير على مشاركة الجيش في الأعمال العسكرية الإقليمية مثل مواجهة أحداث حركة رشيد عالي الكيالي عام ١٩٤١،

ومواجهة قوات حكومة فيشي في سوريا عام ١٩٤٣ وغيرهما من مهمات في فلسطين ومصر، وغيرها (xxvii).

لم تفهم دوافع الأمير عبد الله على حقيقتها من هذه المشاركات، وربما فهمت سلباً، وما تزال حتى الآن. وهذه دعوى لإعادة فهم العقلية الاستراتيجية التي كان يتمتع بها الأمير والأهداف البعيدة المدى التي كان يتوخاها في عملية بناء الجيش الأردني والمشاركات القتالية في جيوش الحلفاء.

وشكلت قيادة عسكرية لمساعدة الشعب الفلسطيني من الضباط العرب والفلسطينيين وأنشئ جيش باسم "جيش الإنقاذ" وسمى الفلسطينيون مجموعة المناضلين الذين شاركوا بالأعمال القتالية ضد الانتداب باسم "جيش الجهاد المقدس" برئاسة الشهيد عبد القادر الحسيني (xxviii).

وعند لحظة الحسم تدخلت الدول العربية التي رأت الأمير عبد الله نظرياً قيادة جيوشها. وبغض النظر عن تفاصيل مكونات هذه الجيوش وقدراتها الحقيقية فإنها فشلت في تحقيق أهدافها.

وفيما يخص الجيش الأردني فإنه الجيش الوحيد الذي تكون على مفاهيم عسكرية عقائدية مستمدة من الثقافة الوطنية الأردنية والفكر القومي العربي الذي تمتع به الأمير إضافة لما اكتسبه الجيش من معاني الاحتراف العسكري المكتسب من المفاهيم الإنجليزية العسكرية الحديثة (xxix). إن المفارقة التي انطوت عليها المشاهد القتالية الملحمية للجيش الأردني في القتال الذي وقع في فلسطين والقدس تكمن في عقيدة الجيش العسكرية.

وبغض النظر عن تفاصيل المعارك^(xxx). فإن ما يهمني الإشارة إليه هو ما يلي:

أولاً- كانت بعض القطاعات العسكرية للجيش الأردني تعمل في فلسطين وكانت تتأوش التجمعات والحركات العسكرية للعصابات الصهيونية قبل إعلان انتهاء الانتداب بدافع حماسي من الضباط والجنود الأردنيين.

ثانياً: كانت أوامر الأمير إلى قيادة الجيش واضحة كل الوضوح، وهي ضرورة التدخل بكل قوة الجيش لحماية القدس وإنقاذها.

ثالثاً: إن مشاهد معينة مثل وداع الأمير للقطاعات المتقدمة من الأردن إلى أرض فلسطين من المشاهد المثيرة، فهو القائد الوحيد الذي رافق جيشه وودعه. ولم تذكر المصادر العسكرية أن قائداً عربياً وقف مثل هذا الموقف.

رابعاً: أن الحماسة المتمثلة بسرعة الحركة والهتاف والأهازيج التي كانت تتطلق من حناجر ضباط وأفراد الجيش تشكل لحظة استثنائية للتعبير عن روح القتال والفروسية التاريخية للأمة العربية.

خامساً: خاض الجيش الأردني قتالاً متنوع الأساليب تراوح بين قتال الجيوش العادي وبين القتال الفردي والجماعي المعروف بقتال وحرب المدن والشوارع. وهذا ما لم يقاتل على مثاله أي جيش عربي رسمي أو شعبي حتى تلك اللحظة.

سادساً: إن الخسائر التي لحقت بالعدو (البشرية والعسكرية) بفعل القتال الاستشهادي للجيش الأردني في القدس أنقذت المدينة، وحالت دون سقوطها بالكامل بيد قوات العدو. كما أن سقوط الشهداء للجيش الأردني كان بفعل القتال والدفاع المستميت عن الأرض المقدسة، أي أن الشهداء لم يسقطوا بفعل الفشل أو الهزيمة أو القتال المجهول، بل إن الشهداء سقطوا في الميدان وهم يعرفون كل مقتضيات الشهادة وواجبها.

رحم الله شهداء الجيش والوطن والأمة

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش

- (i) عارف العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، مصر، د.ت، ص ١١، ياسين الغادي: مكانة القدس والمسجد الأقصى، القاهرة، ط (١) ١٩٩٦، ص ٢٠٧.
- (ii) محمود كمال: حول بيت المقدس، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٩، ص ٢٧-٤٠.
- (iii) عزمي محمود أبو عليان: القدس بين الاحتلال والتحرير، الزرقاء، ١٩٩٣، ص ١٤٣.
- (iv) المعاضيدي: خاشع: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، الجمهورية العراقية، ١٩٨١، ص ١٧٣ وما بعدها.
- (v) سليمان الموسى ومنيب الماضي، تاريخ الأردن في القرن العشرين، مكتبة المحتسب، ط (١) عمان ١٩٨٩، ص ١٥.
- (vi) علي محافظة: الفكر السياسي في فلسطين (١٩١٨-١٩٤٨)، ط (٢) ٢٠٠٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٧٦.
- (vii) سليمان الموسى: مرجع سابق، ص ١٥ وما بعدها.
- (viii) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
- (ix) ناهض حتر: في القضية الأردنية العربية (مجموعة وثائق ١٩٢٩) الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان ١٩٨٧، ص ٢٥.
- (x) محمود عبيدات، الدور الأردني في النضال العربي السوري (١٩٠٨-١٩٤٦) الأهلية لتوزيع والنشر، عمان، ١٩٩٧.
- (xi) سليمان الموسى: مرجع سابق، ص ١٣٣.
- (xii) علي محافظة: مرجع سابق، ص ١٧٦.
- (xiii) الملك المؤسس عبد الله بن الحسين مفكراً وأديباً، تحرير بكر خازر المجالي، قاسم محمد الدروع، ١٩٩٩م، ص ٢٣.

- (xiv) بلال النل: عبد الله بن الحسين والقضية الفلسطينية ص ١٤٧-١٦٧، بحث في كتاب الملك المؤسس حياته، فكره، عمان، ١٩٩٩.
- (xv) الموسى، مرجع سابق، ٢٩١، ٣٣٩.
- (xvi) نجيب الأحمد: فلسطين تاريخاً ونضالاً، دار الجليل للنشر، عمان، ط(١)، ١٩٨٥، ص ٢٠٥.
- (xvii) مصطفى الأسعد: شهداء الأردن على أرض فلسطين، ط(١) اريد ٢٠٠٣، ص ٢٣.
- (xviii) المرجع نفسه، ص ٢٣.
- (xix) المرجع نفسه، ص ١٤-٢٥.
- (xx) المرجع نفسه، ص ٢٧.
- (xxi) علي محافظة: مرجع سابق، ص ٦١٠، هند أبو الشعر: مشروع سوريا الكبرى الاتحاد العربي، ص ٣٣، بحث قيم كتاب الملك المؤسس بين الحسين مفكراً وأديباً، تحرير بكر خازر المجالي، ١٩٩٩.
- (xxii) هند أبو الشعر، المرجع نفسه، ص ٤٦.
- (xxiii) المجالي: المرجع السابق، ص ٧٤.
- (xxiv) حسين إمام محمد: قضية القدس دراسة تاريخية، مصر، مركز الإعلام العربي، ط(١) ٢٠٠٦، ص ٨٥ وما بعدها.
- (xxv) المرجع نفسه، ص ٩٢.
- (xxvi) محمود عزمي: المعالم الرئيسية للفكر الاستراتيجي العسكري العربي، ص ٤٠٧-٤١٧، مجلة قضايا فكرية، (المفكر العربي على مشارف القرن الواحد والعشرين) ١٩٩٥م.
- (xxvii) الموسى: مرجع سابق، ص ٤٥٣ وما بعدها.
- (xxviii) حسين إمام، مرجع سابق، ص ١١٨.
- (xxix) المرجع نفسه، ص ١٢٢.
- (xxx) الموسى: مرجع سابق، ص ٤٩١ وما بعدها.